المناهج النقدية عند طه حسين

م. م فائزة عبد الزهرة جامل

جامعة القادسية /كلية الادارة والاقتصاد

الخلاصة:

التفت طه حسين إلى المتلقي ، لذلك لجأ إلى التحليل والتعليل ليُقنع العقل عند المتلقي ؛ إذ نقل العملية النقدية من العاطفة إلى العقل في مناهجه النقدية جميعها أثناء اتباعه لمنهج الشرح أو المنهج التاريخي أو الانطباعي أو النفسي أو الفلسفي أو في أثناء موازناته بين الأدباء . ولنا أن نقول – وبحيادية – أن نقودات طه حسين قد شكّلت ثورة قلبت المفاهيم النقدية عند العرب في مطلع القرن العشرين . والحكمة تقول : ما اختلف الناسُ في شيءٍ إلا وكان عظيماً ، وإن اختلاف الناس من أهل الاختصاص ومن غيرهم في (نقد) طه حسين يؤشر تميزه وعلو مكانته ، ولاشك في أن بصمات طه حسين النقدية تبقى حاضرة في معظم المؤلفات النقدية الموافقة والمخالفة لفكره ، لأنه أسس وأوجد المنهج النقدي الأكاديمي المتبلور في النقد العربي الحديث .

المقدمة :

يحاول هذا البحث التعرف على المناهج النقدية عند طه حسين (1898 – 1973م) ، ذلك من خلال استقراء ما كتبه عملاق الأدب العربي في مؤلفاته التي جاوزت الخمسين مؤلفاً ، وقد حاول البحث التركيز على مؤلفات طه

حسين الأكثر اقترابا من النقد والأكثر انميازاً من سائر كتاباته الأدبية التي تُقدم لنا طه حسين ناقداً ، ومعلوم أنّ النزعة النقدية واضحة في معظم كتابات طه حسين ، لذلك أصبح من العسير على بحث بهذا الحجم الإمساك تماماً بالفكر النقدي لطه حسين ، فحاولت الباحثة التمسك بالمناهج النقدية الواضحة المعالم وهي : منهج الشرح ، والمنهج التأريخي ، والمنهج النفسي ، والمنهج الانطباعي ، والمنهج الفلسفي ، ولا سبيل إلى فهم الفكر النقدي لطه حسين إلا من خلال التعرف على المناهج النقدية التي عمل من خلالها في أثناء تعامله مع نصوص التراث العربي القديم والحديث .

الفكر النقدي عند طه حسين:

إن العالم المتعدد المتباين الذي ينطوي عليه نقد طه حسين جعل من مسألة القبض على منهجه النقدي تتطلب استقراءً لجميع مؤلفاته في النقد والثقافة والأدب ؛ إذ تشرَّب النقد فيها بمناهج متعددة ولا يمكن لبحث بهذا الحجم وهذه العجالة أن يدّعي أنّه قد أمسك بحبل متينّ يوصله إلى جوهر الفكر النقدي عند عملاق الأدب العربي .

فقد كتب طه حسين في الأدب والنقد والتأريخ والتربية ، وكتب القصة والشعر ، وكتب مقالات ودراسات وخواطر ، وحقق وراجع وأشرف على تحقيق بعض المتون القديمة، فضلاً عمّا ترجمه من مؤلفات واشترك به من أعمال وما كتبه من مقدمات لبعض المؤلفات وأحاديث صحفية وندوات كثيرة إن هذه الموسوعية في التأليف فرضت عليه موسوعية في النقد فكان ناقداً وهو يكتب في التاريخ أو الاجتماع أو التربية ، و إن ما يعنينا في بحثنا هذا هو

تسليط الضوء على أهم المناهج النقدية التي استخدمها طه حسين في كتاباته النقدية .

إذا كان المنهج الفلسفي الديكارتي هو المنهج الأكثر بروزاً في النتاج النقدي عند طه حسين كونه أشتهر من خلاله ، فإن المنهج ألتأريخي هو المنهج الأكثر انتشاراً في كتبه النقدية ، وقد كتب طه حسين على وفق المنهج النفسي ولا تخلو نظرته النقدية من الانطباعية فكان يُطعّم كلّ نقوداته بانطباعية شفافة تحكي لنا شخصية طه حسين الإنسان ، ويمكن أن نسجل له ثلاث بصمات وضعها على النقد العربي الحديث أدّت إلى انعطافة كبيرة في مسار النقد الأدبي عند العرب وهي :

أولاً : نقل مصطلح النقد عند العرب من كونه مصطلحاً دالاً على الذم إلى مصطلح يدل على التقويم الذي يؤدي إلى اتخاذ موقف ما من النص ، وقدسماه (النقد الصحيح)[1].

ثانياً : وضع المناهج الأكاديمية في النقد موضع التطبيق وكانت المناهج أو المنهج المستخدم عند العرب هو المنهج الوصفي الإنطباعي الممجد للنص ، وقد أكد طه حسين وسيد قطب أسبقيتهما إلى المنهجية التي تؤكد شخصياتهما العلمية من خلال مؤلفاتهما (ذكرى أبي العلاء) ، و (في الشعر الجاهلي) لطه حسين(في النقدالأدبي أصوله ومناهجه) لسيد قطب وقد استخدم طه حسين المناهج النقدية الواضحة المعالم والحدود .

ثالثاً : انطلق في الكثير من نقوداته من داخل النص ليحلله على وفق المناهج النصية التي تقلل من شأن تواتره وصحة روايته ، وإن كان هذا

المنهج قد أستخدم عند علماء العرب فإنه كان مقتصراً على علوم الحديث التي يُنظر فيها أحياناً إلى متن (الحديث النبوي الشريف) ليُصنف على وفق تطابقه مع تعاليم القرآن . ويعد طه حسين أول مَن نقله بإصرار إلى علوم الأدب مستخدماً مقاييس العقل والمنطق .

لقد مثلت جهود طه حسين وبعض معاصريه ((من الأساتذة الجامعيين المصريين مثل أحمد أمين ، وأمين الخولي ، وأحمد الشايب وغيرهم نقلة نوعية في تاريخ النقد الأدبي الحديث مثلت جملة من المشكلات التي اتّسم بها الخطاب النقدي العربي في تلك المرحلة)) [2] ، لقد أسست الجهود النقدية لطه حسين علاقة متوترة بالموروث النقدي والثقافي عموماً ، وكرست في الوقت ذاته التوجه المؤسسي الأكاديمي أو المنهجي بحسب المفاهيم الحديثة ، وقد رافقت حالة التوتر والمنهجية التي ربما تكون قد تولدت من حالة الشك والتوتر أو اتصلت بهما في تكريس السمتين ، ويمكن أن يكون طه حسين الأكثر فعالية من أبناء جيله في تكريس السمتين معاً [3] وتجتمع في نقد طه حسين وفكره ، كما يرى ذلك (سيد البحراوي) رؤيتان متعارضتان ، هما تلك الصادرة عن الفلسفة التنويرية بما فيها من تفعيل للعقل ، والفلسفة الوضعية ذات التوجه الحسّي التجريبي ، فضلاً عن الرؤية الفلسفية والمنهجية المغايرة والمتعارضة مع الآخرين ، والمتمثلة بالفلسفة الديكارتية الكامنة تحت المنهج الشكوكي الذي تبناه [4] . وإذا كان طه حسين قد شكّل في نقده انميازاً خاصاً من باقي معاصيريه فانه لا يشكلُ قفزة في سلسلة التطور النقدي العربي ، إذ إنه ((ليس سوى سمة من سمات المرحلة التاريخية للثقافة العربية ، فالمراوحة والازدواجية- أو ربما التناقض - لم تكن.... حكراً على طه حسين

فقط ، فقد لوحظ ما يشبه ذلك عند العقاد في مشروعه النقدي ، كما لوحظ عند غيره فيما بعد)) [5] ، فلم يكن نقد طـه حسين بدعا في تطور النقد العربي ، ويمكن لنا القول – بحيادية- إنّه كان منمازاً عن كل النقد العربي المعاصر له .

إن كل المناهج النقدية العالمية كانت موجودة بشكل أو بآخر في نقد طـه حسين إلا أنَّ أهم المناهج المتبلورة في نقده هي : الشرح والوصف أو الترجمة والمنهج التاريخي والمنهج الفلسفي، الديكارتي والمنهج النفسي فضلاً عن المنهج الانطباعي . ولا يمكن بحال من الأحوال أنْ نرسم حدوداً واضحة للمناهج النقدية عند طه حسين ولم نعثر له على مؤلف نقدي يستخدم منهجاً نقدياً واحداً بانضباط تام من دون الدخول في مناهج نقدية أخرى ، فقد تناول طه حسين الأدب من وجهة النظر الاجتماعية ، ولعل رسالته الجامعية التي نال بها الدكتوراه في السوربون 1917 م التي كان عنوانها (فلسفة ابن خلدون ورسالته الاجتماعية) خير دليل على وعيه بهذا المنهج ، واستخدم المنهج الموازن في مواضع متفرقة في كتبه ومقالته النقدية ، إذ إنَّ ما ورد في كتاب (حديث الأربعاء) من موازنات ، وكتاب (حافظ وشوقي) شواهد لا تَرد على استخدامه لهذا المنهج ، أما التصويب اللغوي فهو منهج لا يفارق كتاباته وبرز هذا المنهج بشدة في كتاب (حديث الأربعاء) وكتاب (ضلم ونقد) ، مما يؤكد تمسكه بهذا المنهج ويؤكد عروبية فكر طه حسين من خلال دفاعه عن العنوان الأعلى للعرب – لغتهم – وغيرته عليها ، كما أن طه حسين عاب على بعض الكتاب تشدقهم بأساليب قديمة لا تمت إلى العصر بصلة أو أساليب حديثة جداً لا يفهمها المتلقي مما يؤكد تركيزه على الأساليب

وضرورة مطابقتها للواقع اللغوي في العصر المعاش ، وإصراره على أن يكون الأدب مرآة للحياة .

ولاشك أنَّ للنقد مساحة واسعة يعمل بها ، ولايمكن لناقدٍ أو أديبٍ أن يحيط بها كاملة ، وأنَّ طه حسين لم يدعِ ذلك أيضاً . ويمكن لنا أن نمسك ببعض الاتجاهات النقدية أو الادبية التي غفل أو تغافل عنها مع امتلاكه للأدوات التي تؤهله لها ، ولعل أهمها :

أولاً : على الرغم من إمتلاك طه حسين للغتين أو أكثر وإحاطته باللغة اللاتينية ، وهي لغة التراث الأوربي ، لم يحاول طه حسين أن يلجَ النقد المُقارن وكان يمكن أن ينجح به ، لأنه وكما نفهم من مجمل كتاباته لم يكن قومياً منحازاً لقوميته بتطرف ، بل كان يدعو إلى عالمية الأدب ، لذلك سينظر – **لو على بالنقد المقارن** – إلى آداب قومه وآداب الغرب بعين واحدة .

ثانياً : لم يلتفت كثيراً إلى الأدب العربي خارج مصر ، وهذا ديدن معظم النقاد المصريين ، ولم يلتفت إلى قامات أدبيه وشعرية شكّلت انعطافاً مهماً في حركة الإبداع العربي مثل (السياب)

ثالثاً : إن معظم من ترجموا الأدب والمعارف المجاورة له قد عملوا باتجاه واحد ، وهو الترجمة من اللغة الطارئة إلى لغتهم الأصيلة ، وكنا ننتظر من طه حسين الانمياز عن كل المترجمين ، ليترجم – ولو بالقدر نفسه الذي ترجم به من الفرنسية إلى العربية – متونا أدبية إبداعية عربية إلى الفرنسية ؛ لأنه أكثر معرفة بطواياها من أعجمي تعلم العربية ،

وسيكون – لو فعل ذلك – أكثر نفعاً للأدب العالمي ، أو عالمية الأدب التي نادى بها كثيراً.

ولعلنا نلتمس لعملاق الأدب عُذراً فيما غفل أو تغافل عنه في أن حياته كانت مزدحمة بالتأليف والكتابة والترجمة ، أو لم تكن له رغبة في ذلك ، والنتاج الأدبي يشترط الرغبة قبل الصنعة ، ولعل طه حسين عمل بالحكمة التي تقول : (لا طُلِبَ كُله ذهب جُله) فلم يطلب طه حسين في الأدب أشياءً لا ترغبها نفسه .

هذه الرؤى كلها تسمح لنا بالقول إن طه حسين في أثناء نقوداته أسس أو وضع الحجر الأساس لكل مناهج النقد الأدبي المعاصر عند العرب مزاوجاً بين مدرستين مهمتين هما : المدرسة العربية الكلاسيكية التي ورثها من خلال دراسته في الأزهر والمدرسة الحديثة في أوربا التي جلب معارفها من خلال دراسته في السوربون الفرنسية .

منهج الشرح (الترجمة) :

تكاد الساحة الأدبية - في مطلع القرن العشرين - تكون خالية من مناهج النقد الأدبي إلا ما كان موروثاً ، فقد وصلت إلينا مصنفات عديدة في شروح دواوين الشعر والفنون النثرية الأخرى ومتون مختلفة ، فضلاً عن أعداد كثيرة من تفاسير القرآن الكريم ، وكانت الحاجة تدعو إلى تطوير هذا المنهج وكان على الناقد أن يتوسط بين القارئ وبين لغة الأجداد من خلال منهج عُرف بمنهج الترجمة في النقد الأدبي ارتبط باسم (أموند رولن) في الأدب الأمريكي [6] وقد نجح الدكتور طه حسين في تحقيق هذه الغاية في كتابه (

حديث الأربعاء) ولا سيما في جزئيه الأول والثاني وفي كتابه (خصام وقد) ، وقد كان طه حسين على وعي تام بطبيعة هذا المنهج إذ يقول :

((*وأنا أشفق منك فلا أروي لك الأبيات الأولى من (معلقة لبيد) بلفظها مخافة أن تنفر منها وإنما أترجمها لك ترجمة ، وأي بأس من أن يُترجم الشعر العربي القديم إلى اللغة العربية الحديثة ؟ فإن هذه القرون الطوال التي مضت بين القدماء وبيننا لم تمض عبثاً وإنما أنشأت بينهم وبيننا فروقاتٍ عظيمة جعلت من العسير علينا أن نفهمهم إذا تحدثوا ، كما نفهم أنفسنا حين يتحدث بعضنا إلى بعض، وإذا كان الفرنسيون يحتاجون إلى أن يُترجموا بعض آثارهم في القرون الوسطى وفي أول العصر الحديث إلى لغتهم التي يألفونها الآن ، فلِمَ لا نحتاج نحن إلى أن نترجم أو نُقرب شعر القدماء من الجاهليين أو من الإسلاميين إلى هذه اللغة اليسيرة التي نصطفيها فيما يكون بيننا من الأحاديث*)) [7]

لقد طغت على طه حسين في أثناء شروحاته أو ترجمته للنصوص القديمة وظيفة المعلم فلم يكن شرحه للنصوص القديمة شرحاً جافاً ، فقد تساوقت الوظيفة التعليمية مع الوظيفة الإبداعية في أثناء شرحه ، نقرأ في كتاب (خصام وقد) مقالة بعنوان (مرآة الغريبة) ما يؤكد هذا الرأي إذ يقول :

((*ذكر الشاعر العربي القديم ذو الرمة في بيت من شعره أخشى أن أرويه فيراه القراء غريبا مسرفا في الغرابة وإن كنت لا أرى فيه من الغرابة شيئاً ولكن المثقفين في هذه الأيام قد ألفوا اليسرة وآثروا السهولة وقرب المأخذ من كل ما يقرأون ويكتبون*)) [8]

لقد اختط طه حسين طريقا وسطاً بين تيارين تنازعا في عصره حول جدوى الفن فمنهم من ذهب إلى أن (**الفن للفن**) وذهب آخرون إلى أن (الفن للحياة) ، أما طه حسين فيرى أنه لا فرق بين التيارين لاختلافه عن الماديين في تفسير معنى الحياة التي يُريد الفن الالتصاق بها ، فإذا كانت الحياة المادية هي المقياس لكانت القوانين والأنظمة واللوائح أجدى من الفن بكثير ، ولكن الحياة التي يطلبها الفن عند طه حسين هي الحياة الروحية ، وبذلك يصبح الامر واحداً في التيارين [9] ، لان الأدب يأخذ من النفس ، كما ((**تأخذ الموسيقى والنحت والرسم والتصوير ، خذه على أنه متعة لروحك وغذاءً لقلبك وعقلك**)) [10] .

إن روح المعلم التي طغت على طه حسين وصبغت أدبه وحددّت ملامح نقده هي التي فرضت عليه منهج الشرح والتفسير ، لأنه يشعر أن الأدب رسالة يجب أن تصل إلى الناس بمستوياتهم العقلية و الثقافية والتعليمية كافة .

المنهج التاريخي :

للتأريخية معنيان عام وخاص ، فالأول ينظر إلى الفرد من خلال علاقته بالتطور البشري مما يوجب دراسة الأديب أو الظاهرة الأدبية تبعاً

للتطور الفني والديني والاجتماعي والسياسي . ويمكن أن يكون (هيجل وشبلنغر) أول من منح الأولوية لهذا المنهج [11] أما التاريخية بمعناها الخاص فهي ارتباط الحدث بالزمن بتتابع منتظم وفق نسق زمني ، أو دراسة الأعمال الأدبية بحسب تسلسلها التاريخي ، فمن الصعب معرفة تأريخ الأدب من دون معطيات نقدية ولاشك في أن تاريخ الأدب مهم بالنسبة للناقد ، فالناقد الجاهل بالعلاقات الأدبية التاريخية يضل في أحكامه الأدبية فلا يستطيع تمييز الأصيل من غير الأصيل أو المزيف . [12]

ويُعدّ طه حسين من أوائل - إن لم يكن الأول فعلاً - النقاد التاريخيين في النقد العربي الحديث ، فقد جمع في كتاب حديث الأربعاء دراسات نقدية تأريخية امتدت من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث ، وقد سار في كتابه على نهج (سانت بيف) في كتابه (حديث الإثنين) وقد بدأ بدراسة شعراء (المجون) في العصر العباسي ثم درس الغزل في العصر الأموي وحاول أن يرسي منهجاً تاريخياً يماثل المنهج التاريخي النقدي في أوربا ، ((وعندما قام طه حسين بتحليل الشعر العربي في عصر بني أمية ظهرت أشد وضوحاً روح النقد عنده ، إذ كان يميّز بين صور الشخصيات التاريخية في البيئة (البدوية والحضرية والمزدوجة) وأبطال قصص الحب [13] ، وقد استطرد طه حسين في تحديد مفهوم الأدب وبين بوضوح الصلة بين الأدب والتاريخ في قوله:

((إن تاريخ الأدب لا يستطيع أن يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها ..... فتأريخ الأدب إذن أدب في نفسه من جهة ، لأنه يتأثر بما تأثر به مأثور الكلام من الذوق بهذه المؤثرات الفنية المختلفة

، وتاريخ الأدب علمٌ من جهة أخرى ولكنه لا يستطيع أن يكون علماً كالعلوم الطبيعية والرياضية لأنه متأثر بهذه الشخصية ، هو إذن شيء بين العلم الخالص والأدب الخالص))[14]

وقد تحدث طه حسين عن المنهج العلمي للدراسات الأدبية التي ظهرت في أوربا ، وهاجم أصحاب منهج التقسيم إلى عصور هجوماً شديداً ، وفضل المقياس العلمي بوصفه مقياساً آخر من مقاييس التأريخ الأدبي . [15]

إن إنكار طه حسين لتقسيمات النقاد (العصور الأدبية) على وفق التاريخ لا يعني إنكاره للتاريخ ، فهو متمسك بالتاريخ تمسكاً شديداً ، إلا أنه يصرُّ في الوقت نفسه على المزاوجة بين التاريخ السياسي والتأريخ الشخصي ومثال على ذلك ما قاله في أثناء دراسته للشاعر الأموي (الوليد بن يزيد) يقول :

((فتى من فتيان بني أمية عزيز النفس رفيع المنزلة ليس في حاجة إلى أن يمدح ليكسب الحياة وليس في حاجة إلى أن يهجو ليدفع عن نفسه خصماً يكافئه وأي الشعراء كان يجرؤ على أن يهجو ولي عهد المسلمين ؟ ثم لم يكن يتعاطى الشعر حباً في الشعر ، إذ لم يكن يحرص على أن يكون شاعراً مجيداً وإنما كان يلهو وكان يجد وكان يتخذ الشعر وسيلة عادية لتعبير عمّا يجد في لهوه وجده وكان لا يعنيه أن يقول الناس أحسن أو أصاب وإنما كان يعنيه أن

يشعر هو إنه وصف ما في نفسه وترجم عن عواطفه (16)))

ويرى طه حسين أن الأدب صورة من صور الواقع فهو محاكاة لحياة الناس ، بل هو وثيقة تاريخية اجتماعية ، يقول:

((ولولا أن الأدباء يشاركون في الحياة الواقعية في ادبهم لما أمكن أن يلهج مؤرخو الأدب بهذه الجمل التي يلحّون علينا بها، من أن الأدب صورة لعصره ومرآة لبيئته ، ومن أن الأدب مصدرٌ من مصادر التأريخ)) (17)

وما دام الشعر العربي على امتداد التاريخ يمثل صورة واضحة لحياة الجماعة ، فهو إذن يصوّر التاريخ ، ومعنى هذا إننا لن نتوقف عند العمل الأدبي إلا بمقدار ما يزودنا بمعلومات تاريخية عن موضوعه أو أصله ، لذلك يقول طه حسين :

((لا ينبغي من الأدب والتاريخ رواية الأعاجيب والعظات ولا إرضاء الذوق والميل الفني وإنما نخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم وسبيلاً إلى فهم حياتها العقلية والشعورية وإلى فهم ما خضعت له من ألوان النظم المختلفة)) (18)

وكما يصوّر الشعر حياة الناس في مرحلة ما ويعد المرآة الحقيقية لتلك المرحلة فأن الشعر يمكن أن يصور حياة الأفراد – الشعراء – من خلال قصائدهم ، وقد اعتمد طه حسين هذه الفكرة في كتابه (مع المتنبي) ، إذ

حاول أن يتتبع حياة المتنبي من خلال استقرائه لشعره باحثاً عن الركائز التي يعتمد عليها في تركيب حياة المتنبي ونموها وتطوّرها . ((إن طه حسين كان يهدف إلى تقديم نموذج من القراءة يستطيع بها صياغة التاريخ الأدبي معتمداً بذلك على النص الثابت الصحيح الذي يستطيع وحده أن يقدم بناءً تاريخياً صحيحاً في إمكانه أن يُلغي جميع التأويلات التي لا تثبتها النصوص ولا يقبل من أخبار الرواة والمؤرخين إلا ما يوافقها ، وبذلك سيكون من شأن هذه القراءة أن تزكي الكتابة النقدية التي يقترحها طه حسين لإعادة بناء التأريخ الأدبي العربي ، تلك الكتابة التي وضع أسسها قبل هذا الكتاب)) [19] ، ونقصد بها المنهج التاريخي .

ومما يبين ثوابت المنهج التاريخي في نقد طه حسين استخدامه الأسئلة التأريخية على النص قبل تحليله محاولاً أن يجد لها الأجوبة ، يقول في كتابه **مع المتنبي** :

((*وأول مسألة تعرض لنا في هذا الطريق (إلى الشام) مسألة تاريخية بالطبع أو مسألتان تاريخيتان ، فمتى ارتحل المتنبي عن بغداد وخاصة إلى الشام ؟ وهل من سبيل إلى توقيت القصائد التي قالها قبل أن تنتهي به الحوادث إلى السجن*)) [20]

ويحاول طه حسين أن يجيب عن أمثال هذه الأسئلة من خلال شعر المتنبي محدداً تأريخه الحياتي : النفسي والأدبي ، وقد بين طه حسين في مقدمة كتابه حديث الأربعاء ، أنّه اختط منهجاً جديداً في الأدب العربي يستطيع

القارئ من خلاله أنْ يتعرف على حقيقة التراث العربي القديم وخفاياه . [21] ، مما يؤكد أنَّ استخدامه للمنهج التاريخي كان بوعيٍ تامٍ منه وبحرفية متبلورة .

المنهج النفسي :

تكمن أهمية منهج التحليل النفسي بالنسبة للنقد الأدبي في أنه مظلّة واسعة تندرج تحتها اتجاهات عدة مهمة منها مراحل النمو عند الإنسان من الطفولة إلى سن الرشد ، وعملية التأويل والتحليل المتعلقة بالقارئ والناقد ((إلا أنها في النهاية تعود لتختلط بمفاهيم الجسد والعاطفة والعقل وتاريخ النمو والتجربة الشخصية ، ومن ثم تشتبك مثل هذه المفاهيم الشخصية الفردية بالإطار الثقافي والاجتماعي)) [22]

وقد اهتم النقاد العرب بالنقد النفسي واختلفوا في الناقد الأول ، فمنهم من يشير إلى (أمين الخولي) [23] ، ومنهم من أشار إلى (أحمد أمين ومحمد خلف الله) [24] ، وإذا تأملنا دراسات طه حسين لأبي العلاء والمتنبي وابن الرومي وجدناه قد استخدم المنهج النفسي في النقد بوعي كامل، يقول في مقدمة كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء) 1914م :

((*الباحث عن تاريخ الأدب لابد له أن يدرس علم النفس للأفراد والجماعات إذا أراد أن يتقن الفهم لما ترك الكاتب أو الشاعر من آثار*)) [25]

ويشدد طه حسين على الطبيعة النفسية للشاعرين (حافظ وشوقي) وهو يوازن بينهما فينفذ إلى طبيعتيهما ومزاجيهما ويجعل شعر كلٌ منهما مرآة لنفسه ، يقول واصفاً نفسية حافظ :

((*بسيطة يسيرة لاحظ لها من عمق أو تعقيد ، وكانت هذه الخصال نفسها محببة إلى الناس مؤثرة فيهم ، وكان شعر حافظ صورة صادقة لهذه الطبيعة البسيطة اليسيرة فأحبوه*)) (26)

ويتضح المنهج النفسي في نقد طه حسين من خلال دراسته (**لأبي العلاء**) ، و(**مع المتنبي**) ، و (حديث الأربعاء) ، وفي كتابه (من حديث **الشعر والنثر**)، وعلى الرغم من أنَّ الانطباعية كانت المنهج الأكثر حضورا في منهج طه حسين في كتابه (مع المتنبي) ، إلا أنَّ عدّهِ النصوص دوال على نفسية الشاعر يشير إلى المزاوجة بين المنهج الانطباعي والمنهج النفسي ، يقول :

((***ولست أشك** في أن الشعر مرآة لشيء ولكنني **لا أدري** : هذا الشيء هو نفس الشاعر أم هو شيء آخر غيرها ..... إن نقد الناقد إنما يصوّر لحظات من حياته قد شَغل فيها بلحظات من حياة الشاعر أو الأديب الذي عُني بدراسته*)) (27)

إن ما يُسجل لطه حسين في منهجه النفسي ، هو عدم تعامله مع هذا المنهج على أنّه مجموعة من العقد النفسية ، كما افترض ذلك كثير من الدارسين العرب على وفق هذا المنهج . فقد تعامل مع الأدب على أنه نتاج نفسي لنفوس طبيعية ، إلا إذا ظهرت العقد النفسية المرضية بصورة واضحة ، وعنده إن النقد لابد أن يعكس نفسيات المُنشئ والناقد والمتلقي الذي يريد الناقد أنْ يوصل النص إليه ، إذ يقول :

((*بالصفحة من النقد الخليق بهذا الاسم مجتمع من الصور لهذه النفسيات الثلاث : نفسية المُنشئ المؤثر ، ونفسية القارئ المُتأثر ، ونفسية الناقد الذي يقضي بينهما*)) [28]

إن المنهج النفسي والنظرية الفرويدية في تفسير الأشياء ومنها الأدب قاصرة - لاشك في ذلك – ومفتقرة إلى الشمول الكافي لتفسر الظواهر عامة ، لذلك لم يعمل طه حسين على المنهج النفسي منفرداً في نقوداته ، بل جعله رافدا مهما من روافده النقدية في فهم النصوص ونقدها ، ولم يقع في رتابة التفسير الأوديبي للشعر .

المنهج الانطباعي :

يشكو معظم الباحثين من الصعوبة التي تواجههم وهم يحاولون التمييز بين المناهج النقدية في الأدب التي تداخلت مع بعضها وتعاقبت بسرعة مذهلة ، وإن أشد التداخل بين المناهج يمكن أن نجده عند طه حسين في أثناء نقده الانطباعي الذي لم يجعله منغلقاً على ذاته منقطعاً معرفياً ، كما هو عند (أناتول فرانس) مثلاً [29]، وإنْ صرّح بالانطباعية الشديدة ، إذ يقول :

((*إن الذاتية هي المؤثر الأول في النقد ، وإنَّ الذوق هو المُسيطر على الناقد حين يعرض لقصيدة من الشعر أو لأي أثر من آثار الفن وإنَّ الناقد فيما يكتب من الفصول لا يزيد على أن يقول لقرائه :إنا أحسُ هذا .واشعرُ بهذا . وأرى*

هذا . وأجد لذة أو ألماً أو إعجاباً أو نفوراً لهذا

الذي أحسُ ، وأشعرُ ،وأرى)) [30]

وإذا كان النقد الانطباعي يعتمد على العواطف الخاصة للناقد ، وإن ما يتوجب على الناقد هنا هو وصف تأثره بالعمل الأدبي [31] ، فإن النقد الانطباعي لم يكن هكذا عند طه حسين ، وإن ما يُفهم من قوله :

((*انا لا أطلب من الشاعر أن يُفهمني ما أراد حقاً ، وأنا لا أقيس براعة الشاعر بقدرته على أنْ يفهمني ما أراد حقاً ، وإنما اريدُ من الشاعر البارع ، كما أريد من الموسيقي الماهر ، أن يفتح لي أبواباً من الحس والشعور ومن التفكير والخيال*)) [32]

أن طه حسين قد وضع نفسه في موضع المتلقي ولم يكن ناقداً وكثيراً ما يضع نفسه هذا الموضع لأنه يتعامل مع العنوان الأعلى لطه حسين كونه أديباً موسوعياً ، فالأديب الحق أو الناقد الحق هو الذي يتعامل مع النص الأدبي على أنه قارئ متلق ثم متلق بدرجة أعلى، أي : قارئ مثالي ، وبعد ذلك تأتي العملية النقدية واتخاذ موقف معين تجاه النص . والناقد الذي لا يتبع هذا التدرج في الوصول إلى العملية النقدية ، يعزل نفسه في قفص اسمه النقد لا يراه الجمهور ولا يلتفت إليه إلا النقاد أو من يمتلكون منظاراً نقدياً يستطيعون من خلاله فهم ما يقول ، ولم يكن طه حسين معزولاً عن الجمهور لأنه يُعبر عن ذوقه وهو في قمة أعماله النقدية ، فيقول في كتاب (**في الأدب**) الذي يُصنف على أنه من كتب النقد :

((*إنما أقرأ الأدب بقلبي وذوقي ومما أتيح لي*
من طبع يحب الجمال ويطمح إلى مُثله العليا ،
والكاتب المحبب عندي هو الذي لا أكاد أصحبه
لحظاتٍ حتى ينسيني نفسي ويشغلني عن التفكير
ويصرفني عن التعليل والتحليل والتأويل ،
ويسيطر علي سيطرة تامة تمكنه من أن يقول ما
شاء أن يقول)) [33]

وعندما يبدأ طه حسين بالتحليل والتعليل ، فأنه ينتقل من كونه قارئاً مثاليا إلى ناقد يعتمد مناهج النقد القديمة والحديثة ، ولا يمكننا تجاهل حقيقة أنَّ طه حسين تلميذ من تلاميذ الأزهر ، فقد أثر النقد الانطباعي العربي القديم والحديث ، أو لنقُل القراءة الانطباعية القديمة التي سادت في حلقات الدرس الأزهرية ، أثرت في نقد طه حسين وكتاباته ، ولعله تأثر كثيراً بأستاذه (حسين المرصفي) صاحب كتاب (الوسيلة الأدبية للعلوم العربية) ، إذ كان الكتاب امتدادا مطوراً للمقولات العربية القديمة ، حاول طه حسين أنْ يُحدّها ويُطعمها بمناهج نقدية أكاديمية حديثة ومتبلورة، إلا أن قاعدة طه حسين النقدية قاعدة انطباعية لأنه قارئٌ متذوق قبل أن يكون ناقداً .

المنهج الفلسفي :

لا يمكن لنا أن نَدّعي أنَّ طه حسين هو الذي أوجد المنهج الفلسفي في النقد العربي الحديث ، فقد ورث النقد العربي هذا المنهج من خلال كتاب (منهاج البلغاء و سراج الأدباء) للقرطاجني ولم ينتبه إليه النقد العربي الحديث إلا بعد أنْ حفلت به أوربا واحتفلت به ، فقد حاول القرطاجني أن يؤسس

منهجاً فلسفياً في دراسة الشعر ونقده حتى قيل : إن حاصل جمع أرسطو طاليس وابن سينا وعبد القاهر الجرجاني وقدامة بن جعفر يساوي (حازم القرطاجني) [34] ، وإذا كان النقد الفلسفي يصدر أحياناً عن فيلسوف ، كما هو عند (إفلاطون) قديما و (سارتر) حديثا ، أو أن يعمد الناقد إلى اعتماد مصطلحات الفلسفة وتطبيقها ، أو أنْ تتشرب في نقده فلسفة سائدة في عصره [35] ، فإن طه حسين لم يكن فيلسوفاً ولم يدّع ذلك ، ولم يستخدم مصطلحات الفلسفة في نقده ، إلا أنّ فلسفة الشك الديكارتي تشربت في نقده لتجعله يتجه إلى اليقين من خلال الشك ويُعمل العقل بدل العاطفة يقول :

((*أريد أن أصطنع في الأدب العربي هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج : هو أنْ يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأنْ يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن ممّا قيل فيه خلواً تاماً*)) [36]

وإذا كانت دراسة طه حسين في فرنسا هي التي ألصقت فكرة الشك في نقده ، كما يرى ذلك كثير من الدارسين ، فترى الباحثة أن ذلك جزءٌ من الحقيقة لأنّ الشك وإعمال العقل في النصوص منهجٌ عمل به النقاد العرب القدماء ، فقد كان هذا منهج أبي عثمان الجاحظ في البحث آنذاك ، وبذلك اعتبر معلما للعقل العربي [37] ، وكان الجاحظ يرفض قبول الفكرة دون مناقشتها والوقوف على صحتها ، فتحدث عن مواضع الشك وحالاتها الموجبة

ليعرف بها مواضع اليقين[38] ، والتراث العربي الإسلامي يحمل مقولة تقابل مقولة ديكارت الشهيرة : (أنا أفكر إذن فأنا موجود) فالغزالي قال بالشك أيضاً ، إذ سبق الغزالي ديكارت في استخدامه الشك طريقا لليقين [39] ، ولعل أشهر من سخّر الشك في العصر الحديث قبل طه حسين هو أستاذه في الأزهر (محمد عبده) ، وقد اعترف طه حسين بأنه يتشوق لدروس أستاذه (محمد عبده) التي يتحدث فيها للطلاب في الأزهر [40] ، وقد كانت النقطة المهمة في فكر الشيخ محمد عبده هي الشك للوصول إلى اليقين ، لكنه لم يشك في صحة القرآن الكريم ، وشك في كل ما سواه ممّا نَقل عن طريق الرواة لصعوبة التأكد من صدقهم والتحقق من سلامتهم، وقد دعا محمد عبده إلى أن ((يُحرر العقل من أية قيود الأمر الذي يُنمّي فيه روح البحث والتطلع والريادة ، بل والمغامرة في آفاق البحث في ميادين هذه العلوم)) . [41]

ومن الواضح أن طه حسين اكتفى بالأخذ بمقولة الشك فقط مجردة من مقومات المنهج الديكارتي ، وبمعزل عن نظريته في المعرفة ، بل أنه من الصعب أن ندرج شكه الأدبي ضمن سياق نظرية الشك عند الفلاسفة ، ويرى الدكتور حسين مروّة في كتابه (النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية) ، أنَّ طه حسين إنمّا أخذ الجانب الشكلي من مذهب الشك عند ديكارت، فبنى على مفهوم ديكارت الخاص لموضوع الفلسفة وعلى اتجاهه العقلاني في نظرية المعرفة كثيراً من نقوداته [42] ، وقد أعلن طه حسين أنَّ منهج ديكارت :

((*ليس خصباً في العلم و في الفلسفة والأدب بحسب وإنما هو في الأخلاق والحياة الاجتماعية*)) (43)

إذ تضيء لنا هذه العبارة البسيطة منهج طه حسين في حياته ، وليس في نقده الأدبي فقط ، فقد كان يُعْمل العقل الذي لا يمكن أنْ يطلق يقينه بالأشياء من دون المرور بمرحلة الشك ، ولسان حاله يقول : (من قدم الشك أدرك اليقين)

هذا إذاً هو المذهب أو النظرية التي قادت طه حسين إلى أنْ يصطنع في البحث عن الأدب وتأريخ فنونه هذه الآلية الفلسفية التحليلية وينتهي به إلى أنْ يضع علم المتقدمين كلّه موضع الشك باطمئنان كامل ، إذ يقول :

((*إمّا نحن فمطمئنون إلى مذهبنا مقتنعون بأن الشعر الجاهلي أو أكثر هذا الشعر الجاهلي لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، إلا ما قدمنا من العبث والكذب والانتحال ، وإنّه إذ لم يكن بدّ من الاستدلال بنص على نصٍ ، إنما هو الاستدلال بنصوص القرآن على عربية هذا الشعر ، لا بهذا الشعر على عربية القرآن*)) (44)

كل ذلك لا يعني أن طه حسين طابق ديكارت في شكّه ، لأنَّ ديكارت شكّ في أصل المعرفة، أما طه حسين فقد شك في طريق المعرفة ، أي : أنه خطا الخطوة الأكثر أهمية في النقد العربي الحديث حين نزع القدسية والتصنيم من الأدب العربي القديم ، فعنده ان كل ما لا يتفق مع العقل والمنطق خاضع

للتساؤل ، مستخدماً أسئلة الفلسفة الاربعة : (متى ، أين ، لماذا ، كيف) ،في معالجة النصوص الأدبية في اثناء نقدها ، سواء أكان المنهج المستخدم تأريخياً أم أنطباعياً أم نفسياً أم أي منهج آخر .

الخاتمة:

1- لا يمكن لباحث أن يُحجِمَ الفكر النقدي لطه حسين من خلال منهج واحد أو أكثر ، ليخرج بخلاصة مفادها أن طه حسين قد عمل وفق المناهج النقدية المُحددة ، باختصار يرى الباحث أنَّ طه حسين قد مثّل (المنهج) و (اللامنهج) في الفكر النقدي العربي الحديث

2- مثّل(المنهج) من خلال إدخاله المناهج النقدية العالمية إلى النقد العربي الحديث بطريقة أكاديمية واضحة ومتبلورة ؛ إذ لم يسبقه إلى هذا الأمر كاتب أو ناقد عربي .

3- أما (اللامنهج) فيتمثل في أن طه حسين لم يستخدم المنهج الواحد بطريقة حاسمة ، فالحدود بين المناهج لا يمكن تأشيرها بشكل واضح عنده ؛ إذ يستخدم مع المنهج الواحد مناهج أخرى تشكل روافد تصب في نهر الإقناع المنطقي والدليل العقلي الذي انمازت به العملية النقدية عند طه حسين.

4- ان العملية النقدية العالمية عامة والعربية خاصة غير قادرة على الفصل بين المناهج بشكل حاسم ؛ لاستحالة ذلك أو صعوبته ، فقد تداخلت المناهج بشكل كبير عند رائد النقد العربي لأنه حاول من خلالها تعزيز آرائه النقدية .

الهوامش:

(1) مجلة الهداية ، 1911 ، العدد 451 : نقلاً عن كتاب الخطاب النقدي عند طه حسين ، أحمد بو حسن / 33 .
(2) دليل الناقد الأدبي ، د. ميجان الرويلي ، ود.سعد البازعي ، / 240 .
(3) ينظر : نفسه والصفحة نفسها .
(4) ينظر : البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث ، د. سيد البحراوي / 55 .
(5) دليل الناقد الأدبي / 242 .
(6) ينظر : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ستانلي هايمن ، ج1 / 18 .
(7) حديث الأربعاء ، طه حسين ، ج4 / 11 .
(8) ينظر : خصام ونقد ، طه حسين / 14 .
(9) ينظر ، نفسه / 74 – 75 .
(10) نفسه ، 86 .
(11) ينظر : مقدمة في النقد الأدبي ، د. علي جواد الطاهر / 397 .
(12) ينظر : نظرية الأدب ، أوستين وارين ، ورينيه ويليك / 47 – 48 .
(13) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، مقالة بعنوان (طه حسين الناقد) بقلم فرانشيسكوا جابريللي / 173 .
(14) في الأدب الجاهلي ، طه حسين / 20 .
(15) ينظر : مدخل إلى مناهج الدراسة الأدبية ، عمر محمد الطالب / 40 – 43 .
(16) حديث الأربعاء ، ج2 / 143 .
(17) ألوان ، طه حسين / 200 .
(18) حديث الأربعاء ، ج1 / 185 .
(19) الخطاب القدي عند طه حسين / 127 .
(20) مع المتنبي ، طه حسين / 14 .
(21) ينظر : حديث الأربعاء / 12 .
(22) دليل الناقد الأدبي / 225 .
(23) ينظر : النقد الأدبي الحديث ، إصوله واتجاهاته ، أحمد كمال زكي / 225 في أثناء إشارته إلى كتاب (أمين الخولي) الذي صدر عام 1939م ، بعنوان (البلاغة وعلم النفس) .
(24) ينظر : التفسير النفسي للأدب ، عز الدين إسماعيل / 14 .
(25) تجديد ذكرى أبي العلاء ، طه حسين / 4 .
(26) حافظ وشوقي ، طه حسين / 198 .
(27) مع المتنبي / 381 .

(28) فصول في الأدب والنقد ، طه حسين / 9 .
(29) ينظر : دليل الناقد الأدبي / 216 .
(30) مقال بعنوان بين هيكل وبيني ، نشر في مجلة (مجلتي) بقلم طه حسين ، العدد ، 158 ، مارس ، 1935م ، نقلا عن كتاب المرايا المتجاورة .
(31) ينظر : المرايا المتجاورة ، جابر عصفور / 304 .
(32) حديث الأربعاء ، ج2 / 53 .
(33) فصول في الأدب والقد / 50 .
(34) ينظر : تأريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس / 569 – 571 .
(35) ينظر : الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي ، د. سعيد عدنان / 21 – 22 .
(36) في الشعر الجاهلي ، طه حسين / 11 .
(37) ينظر ، أبو عثمان الجاحظ ، محمد خليفة / 1 .
(38) ينظر : كتاب الحيوان ، ج1 / 41 – 43 .
(39) ينظر : الفكر الإسلامي ، منابعه وآثاره ، م.م. شريف / 62 – 63 .
(40) ينظر : الأيام ، طه حسين ، ج2 / 33 .
(41) الإمام محمد عبده ، مجدد الدنيا بتجديد الدين ، محمد عمارة / 47 .
(42) النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ،حسين مروّة ، ج1 / 319 .
(43) في الشعر الجاهلي / 182 .
(44) نفسه / 183 .

1. المصادر والمراجع:

2. أبو عثمان الجاحظ : محمد خليفة ، دار الكتاب اللبناني ، دط. ، بيروت ، 1973م .
3. الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي : د. سعيد عدنان ، دار الرائد العربي ، ط1 ، بيروت ، 1987م .
4. الإمام محمد عبده ، مجدد الدنيا بتجديد الدين : محمد عمارة ، دار الشروق ، ط2 ، القاهرة ، 1988م .
5. الأيام : طه حسين ، دار المعارف ، دط. ، القاهرة ، 1980م .
6. ألوان : طه حسين ، دار المعارف ، ط2 ، القاهرة ، 1952م .
7. البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث : سيد البحراوي ، دار شرقيات ، ط1 ، القاهرة 1993م .
8. تاريخ النقد الأدبي عند العرب : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ،ط2 ، بيروت ، 1978م

9. تجديد ذكرى أبي العلاء : طه حسين ، دار المعارف ، د.ط. ، بيروت ، 1962م .
10. التفسير النفسي للأدب : عز الدين إسماعيل ، دار العودة ، د.ط. ، بيروت ، 1962م .
11. حافظ وشوقي : طه حسين ، مكتبة الخانجي ، ط2 ، القاهرة ، 1966م .
12. حديث الأربعاء : طه حسين ، دار المعارف ، ط2 ، القاهرة ، 1962م .
13. الحيوان : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ) ، تح : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة البابي الحلبي ،ط3 ، القاهرة ، 1945م .
14. خصام ونقد : طه حسين ، دار العلم للملايين ، ط8 ، بيروت 1978م .
15. الخطاب النقدي عند طه حسين : أحمد أبو حسن ، دار التنوير ، ط1 ، القاهرة ، 1985
16. دليل الناقد الأدبي : د. ميجان الرويلي ، و د. سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، ط2 ، بيروت ، 2000م .
17. طه حسين ، كما يعرفه كتاب عصره : مجموعة مقالات ، دار الهلال ،د.ط. ، القاهرة ، د.ت. .
18. فصول في الأدب والنقد : طه حسين ، دار المعارف ، د.ط ، القاهرة ، 1945م .
19. الفكر الإسلامي ينابيعه وآثاره :م. م شريف ، تر. أحمدشلبي ، مطبعة النهضة ، ط6 ، القاهرة ، 1975م .
20. في الأدب الجاهلي : طه حسين ،مطبعة دار الكتب المصرية ، د.ط. ، القاهرة ، 1926
21. مدخل إلى مناهج الدراسة الأدبية : عمر محمد الطالب ، دار عكاظ ، ط1 ، المغرب ، 1988م .
22. المرايا المتجاورة ، دراسة في نقد طه حسين : د. جابر عصفور ، دار الشؤون الثقافية العامة ، د.ط. ، بغداد ، 1990م .
23. مع المتنبي : طه حسين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، د.ط. ، القاهرة ، 1973م .
24. مقدمة في النقد الأدبي : د. علي جواد الطاهر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د.ط. ، بيروت ، 1979م .
25. النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية : د.حسين مرّوة ، دار الفارابي ، بيروت ، 1978م .

26. نظرية الأدب : أوستين وارين ، ورينيه ويليك ، تر: محي الدين صبحي ، مراجعة : د. حسام الخطيب، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ،دط. ، القاهرة ، 1972م .
27. النقد الأدبي الحديث ، أصوله واتجاهاته : احمد كمال زكي ، دار النهضة العربية ، دط. ، القاهرة ، 1981م .
28. النقد الأدبي ومدارسه الحديثة : ستانلي هايمن ، تر : إحسان عباس ، ود. محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، دط. ، بيروت ، دت. .

Abstract:

Taha Hussein deem wise to the recipient , so that he preferred to analyze and caption to convince the brain of the recipient , whereas he transmitted the critical operation from the emotion to the brain in his critical method all in his method followed the description method or the historical or impression or philosophical method or during his balance batten the authors . we have the right to say neutrally , the critics of Taha Hussein is formed a revolution reverse the concepts of criticism fore the Arabs at the beginning of the 20th century' .the wisdom says :

when the people disagree for one thing and it was great, the disagree of specialists or other in (critic) of Taha 1lussein proved his sublime position , no doubt that his critical imprint still available in most written agreed or disagreed , because he established an academically critical method critical in the modern Arab critic